الانحراف العقدي: أسبابه ومظاهره

د. "محمد نبيل" طاهر العمـري* دة. تهاني عفيف يوسف جابر**

تاريخ وصول البحث: 2016/11/24م **تاريخ قبول البحث: 2017/1/16م**

ملخص

تناولت هذه الدراسة الحديث عن قضية واقعية هامة هي الانحراف العقدي، موضّحة أسبابه ومظاهره وفق رؤية قرآنية واقعية تشمل ذكر أبرز الأسباب والمظاهر التي تكررت منذ نزول الوحي إلى يومنا هذا.

كما بيّنتْ الأسباب التي توجِّه الأفراد والجماعات نحو الانحراف في اعتقاداتهم والعوامل المؤثرة في ذلك، وذكرت مظاهر الانحراف العقدي المتعددة ودورها في انحراف الأفراد والجماعات منحرفة الفكر والعقيدة، وما أدى ذلك إلى تعدد المبادئ والأفكار وما أدت إليه من تدني الفكر الإنساني إلى أدنى المستويات، وتعطيل العقول عن التفكير السوي الصالح لإعمار الحياة وإنماء مظاهر السعادة فيها.

الكلمات الدالة: الانحراف، العقدي، الأسباب، المظاهر.

Abstract

This research discusses one of the very important and real issues, namely the doctrinal deviation. The study shows reasons and aspects of doctrinal deviation in the light of the Qur'anic real vision which includes reasons and aspects of deviation which are repeated since time of revelation until present. It is also concerned with the reasons that direct individuals and groups towards deviation, and the factors that affect them. The study also presents aspects of doctrinal deviation and the role they play in individual's deviation and with deviated groups in terms of thought and doctrine. The study also highlights how that deviation led to differences in thoughts and principles which led humanity to one of its lowest levels, and stopped minds from thinking for the goodness of life, its construction and growth and aspects of happiness.

مقدمة:

الحمد لله الذي جعل دينه صراطاً من عنده مستقيماً، وأرسل من البشر مبشّرين ومنذرين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعدهم، وأنزل القرآن نوراً وهدى إلى سواء السبيل، شاهداً أن لا إله إلا الله وحده، وأن محمداً ﷺ عبده ورسوله، بعثه الله رحمة للعالمين، فأتمّ بلاغ الدين، وبيّنه للعالمين، وتركهم على المحجّة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه إلى يوم الدين. وبعد؛

فإن من السنن الكونية في حياة البشرية ما كان من صراع بين الحق والباطل، ولقد تفرق الناس بينهما فكان منهم من هدى الله ومنهم من حقّت عليه الضلالة، وبما أن الفطرة البشرية تشترك بين الناس أجمعين بتوحيد الله تعالى، كان لا بد من أسباب أدّت بالإنسان للانحراف عن الفطرة السويّة إلى اعوجاج السبيل، ومن استقامة الدين إلى زيغ الباطل.

ولقد اقتضى العدل الإلهي أن يُتمّ الله البيان الوافي في نتائج السير في كلا السبيلين، حتى يميز الله الخبيث من الطيّب

* أستاذ مشارك، الجامعة الأردنية.

** باحثة.

على أتم وجه وأوضح صورة، فتتحقق المعرفة التامة للمعتقِدِين بهذا الدين، وتكون للإرادة البشرية دورها في اختيار السبيل، وعليها تقوم الحجة على العالمين.

وكانت هذه الدراسة الموسومة بـ (الانحراف العقدي أسبابه، ومظاهره) للبحث في مسألة الانحراف العقدي، والأسباب التي أدّت إليه، وما ظهر من مستجدات وطرأ من صراعات في الواقع الحياتي، مُسْتَنْبَطَةً من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكان ذلك في تمهيد، وفصلين، وخاتمة، على النحو الآتي:

التمهيد ويتضمن:

- **المطلب الأول:** تعريف الانحراف في اللغة والاصطلاح.
- **المطلب الثاني:** الأصل في الإنسان في مبدأ أمره أن يكون مخلوقاً سويّاً.

الفصل الأول: أسباب الانحراف العقدي الموجِّهة والمؤثرة، وفيه المباحث التالية:

المبحث الأول: أسباب الانحراف العقدي الموجِّهة:

- **المطلب الأول:** الانحراف الإنكاري الموجِّه لانحراف الاعتقاد.
- **المطلب الثاني:** الانحراف الاستكباري الموجّه لانحراف الاعتقاد.

المبحث الثاني: أسباب الانحراف العقدي المؤثرة:

- السبب الأول: التأثُّر التلقائي الطبيعيّ المسبب لانحراف الاعتقاد.
- السبب الثاني: التأثير المقصود لتحريف الاعتقاد.

الفصل الثاني: مظاهر الانحراف العقدي(الفساد، والفرقة في الاعتقاد)، **وفيه المباحث التالية:**

المبحث الأول: مظهر الفساد الاعتقادي.

- **المطلب الأول:** ظاهرة التكفير:
- **المطلب الثاني:** ظاهرة الغلو في الدين
- **المطلب الثالث:** ظاهرة الابتداع في الدين
- **المطلب الرابع:** ظاهرة الانحلال الأخلاقي.

المبحث الثاني: مظهر الفرقة الاعتقادي.

- **المطلب الأول:** ظاهرة الطوائف والفرق العقدية.
- **المطلب الثاني:** ظاهرة التعصب المذهبي.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج التي تم التوصل إليها في هذه الدراسة.

التمهيد
تعريف الانحراف العقدي لغة واصطلاحاً

المطلب الأول: تعريف الانحراف لغة واصطلاحاً:

أولاً: الانحراف في اللغة: للجذر (حرف) ثلاثة أصول هي: "حدُّ الشيء، والعُدول عن الشيء، وتقدير الشَّيء ..."[1]، وقد اتفقت المعاجم اللغوية على أن معنى الأصل الثاني الميل عن الشيء إلى شيء آخر، فجاء في لسان العرب: "حَرَفَ عن الشيء يَحْرِفُ حَرْفاً وانْحَرَفَ وتَحَرَّفَ واحْرَوْرَفَ عَدَلَ ... وإذا مالَ الإنسانُ عن شيء يقال تَحَرَّف وانحرف واحرورف"[2]، "وقال ابنُ سِيدَه: فُلانٌ علَى حَرْفٍ من أَمْرِهِ: أَي نَاحِيَةٍ منه إذا رَأَى شَيْئاً لا يُعْجِبُه عَدَلَ عنه"[3].

ثانياً: الانحراف في الاصطلاح: عُرّف الانحراف اصطلاحاً بأنه: "إلقاء الشبه الباطلة والتأويلات الفاسدة، وصرف اللفظ عن معناه الحق إلى معنى باطل بوجوه الحيَل اللفظية"[4]، وهو أيضاً الإمالة والإزالة عن مواضعه بجعل مكانه غيره، أو تأويله على غير المراد تأويله[5].

ويقول الزمخشري في فهم التحريف من خلال قوله سبحانه: **﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾**[النساء: 46]، "ويميلونه عنها ويزيلونه؛ لأنهم إذا بدلوه ووضعوا مكانه كلاماً غيره فقد أمالوه عن مواضعه التي وضعها الله فيها وأزالوه عنها"[6].

وأحسب أنني لو بحثت في كل ما يتعلق بهذه اللفظة من معانٍ فسأجد اتفاقاً تاماً بين المعرّفين على هذا التعريف وقد أرى تعريفها شرعاً بأنه الميل السقيم والعدول عن اتخاذ المنهجية القويمة التي وضعها الله تعالى لخلقه في كتابه وسنة نبيه لإقامة الحياة وفقها، وعمارة الأرض على أسسها، إلى غيرها من مناهج البشر الضالة، لسبب من الأسباب الموجّهة لهذا العدول، أو المؤثرة فيه، أو إخضاع الاستواء المنهجي في القرآن الكريم إلى عدّة عوامل متعلقة بالإنسان وبالواقع، وما يشمله العدول عن الغاية القرآنية التي يجب أن ينتهي سالكه إليها.

المطلب الثاني: الأصل في الإنسان أن يكون مخلوقاً سويّاً حنيفاً:

خلق الله تعالى الإنسان لهدف وغاية، كما في قوله تعالى: **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾**[الذاريات: 56]، والعبادة ليست مقصورة على الطاعات المحددة المخصوصة، فكل عمل لعملية الإنسان طاعة لله فهو عبادة، ومن أهم الطاعات والعبادات عمارة الأرض وخلافته فيها وفق منهج الله تعالى، وغايته في الآخرة الفوز برضا الله تعالى وحسن العاقبة بدخول الجنة، وجعل بين الغايتين توافقاً يربط دنيا الإنسان بآخرته، وأي ميل أو زيغ عن هذه الغاية الدنيوية يخل بالتوافق بين الغايتين، ويعدّ انحرافاً عن أهداف العقيدة الإسلامية لعارض اعترضه فأدى به إلى انحرافه عن أهدافه التي خلق لأجلها في حياته.

كما أن الله تعالى خلق الإنسان على فطرة سليمة قوامها الخير، وأي فكرة أو فعل يخالف هذه الفطرة يكون انحرافاً عن الطبيعة السويّة التي خلقها الله تعالى في الإنسان، فقوله تعالى في خلق الإنسان: **﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾**[القيامة: 38]، وقوله: **﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾**[الأعلى: 2] دليل على أن هذا الخلق المحكم للإنسان الذي امتاز بتمام الإحسان ودقة الإتقان قد سوّاه الله تعالى بفطرة تجعل من هذا الخلق المتقن يتأصّل بالخير الفطريّ المرافق للإنسان عبر تاريخ الحياة[7]. وقد بيّن الحديث الشريف أن المولود –أي مولود– من البشر خلقه الله حنيفاً وأن الشيطان قد حرفه عن دينه فقد ورد في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته ناسباً الخلق إلى الله تعالى: "... وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ..."[8].

وأرسل تعالى الرسل مبيّنين لمراده مفصّلين لأحكامه، معرّفين الناس سبيله ومنهجه، وسلوك أي منهج أو طريق غير طريق الله ومنهجه الذي بيّنته الرسل عليهم الصلاة والسلام جميعاً هو انحراف عن الصراط المستقيم، وانحراف عن حُكم الله تعالى في أوامره، "فالصراط المستقيم هو أمور باطنة في القلب: من اعتقادات، وإرادات، وغير ذلك، وأمور ظاهرة: من أقوال، أو أفعال قد تكون عبادات، وقد تكون أيضاً عادات ...[9]، وهذه الأمور الباطنة والظاهرة بينها ارتباط ومناسبة، فما يقوم

بالقلب من الشعور والحال يوجب أموراً ظاهرة، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال، يوجب للقلب شعوراً وأحوالاً"[10]، وعلى ذلك تتبيّن العلاقة بين أسباب الانحراف العقدي ومظاهره.

ثم إن هناك فكرة أخرى لا بد من بيانها في هذا التمهيد، وهي قصة الشيطان في عدائه للإنسان ودوره في انحرافه عن الأسس العقدية القويمة، إذ هو مبتغى وجوده في حياة الإنسان، وأسباب الانحراف اجتمعت في ذاته وصفاته، وقد ترتب على ذلك تمثل هذه الانحرافات في إرادته وأفعاله الضالة والمضلّة للإنسان، ولقد بيّن القرآن أن انحراف الإنسان هو عهد الشيطان على نفسه، وأنه سيتخذ الأساليب المختلفة في منهج إضلاله، وأن غايته العظمى الإضلال وتتفرّع إلى أهداف مرحلية لقيام خطوات إضلاله، لوصول الإنسان إلى ما لا يُغفر وهو الشرك بالله قمة الانحراف العقدي، فيجتمع كلاهما –الإنسان والشيطان– في نهاية واحدة فقال الله تعالى: **﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً * إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً * لَّعَنَهُ اللّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً * وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً * أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً﴾**[النساء116–121]، فيكون أي انحراف هو خطوة من خطوات الشيطان، وأن نهاية الخطوات ذاك الضلال المقصود منه الإشراك الذي لا يُغفر، فكل انحراف لا بد أن يكون نابعاً من خلل عقدي مهما كان مستوى هذا الانحراف.

ولقد كان أول من أحدث الشرك بالله تعالى والانحراف العقدي هم قوم نوح، وكان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على دين مستقيم، واستدل ابن القيم[11] على ذلك بقراءة أبيّ بن كعب حيث جاءت بإضافة لفظ (فاختلفوا) بعد إثبات كينونة الناس على أمة واحدة في آية سورة البقرة: **﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾**[البقرة: 213]، حيث بيّن ابن القيم ذلك بقوله ناسباً ذلك إلى سعيد عن قتادة: "ذكر لنا أنه كان بين آدم ونوح –عليهما السلام– عشرة قرون كلهم على الهدى وعلى شريعة من الحق ثم اختلفوا بعد ذلك فبعث الله ﷻ نوحاً، وكان أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض"[12].

الفصل الأول
أسباب الانحراف العقدي (الموجّهة والمؤثرة)

إن من كمال البيان القرآنيّ أن جاء بعرضٍ شافٍ لأسباب الانحراف العقدي، وانتهج أساليب متنوّعة ومبثوثة بين آيات القرآن الكريم وسوره، ليبيّن للقارئ بأن هذه الانحرافات ستتكرر في البشريّة جمعاء من بداية الخلق إلى قيام الساعة، فذكر أسباب الانحراف الرئيسية وما ينتج عنها من تطوّرات تؤدي إلى الخسران، وكان هذا ضمن منهجه الوقائي في حماية الإنسان من أخطار هذه الانحرافات وما يترتب عليها من تبعات، لتقوم الحجة على الإنسان عند الحساب.

وعند البحث في أسباب الانحراف العقدي، يتبيّن أن هذه الأسباب عبارة عن مجموعة لا ينفك بعضها عن بعض، بل يرتبط كل سبب بالآخر في سلسله متصلة تتزايد حتى يصل بالإنسان إلى مرتبة الضالِّ بنفسه، المضلِّ للآخرين.

المبحث الأول
أسباب الانحراف العقدي الموجّهة

المقصود من التعبير بأسباب **الانحراف الموجِّهة:** هو ما كان مصدرها باطن الإنسان من مشاعر وأهواء وأحاسيس، مما يوجِّهه إلى الميل الخاطئ والانكفاء من الاستقامة إلى ضدّها، والنابعة من سقم التفكير، وسوءِ الفهم، وحب الذات، والتعلق بالشهوات، وكلها مولّدة للقناعة الداخلية المؤدية إلى إصدار الأحكام الموجِّهة للفعل الإنساني باعتقاد خلاف الحق دون علم به أو بعد علمه به.

وتتمثل هذه الزمرة من الأسباب بما يلي:

المطلب الأول: الانحراف الإنكاري الموجِّه لانحراف الاعتقاد:

إن أصل "النون والكاف والراء أصلٌ صحيح يدلُّ على خلاف المعرفة التي يَسكُن إليها القَلب. ونَكِرَ الشَّيءَ وأنكَره: لم يَقْبَلْه قلبُه ولم يعترِفْ به لسانُه"[13]، والإنكار هو السبب الأول من أسباب الانحراف، وهو قسمان: **الإنكار الكلي** وهو عدم الاعتراف والتسليم بكل قضايا الاعتقاد والكفر بها كافة، أو عدم الاعتراف بواحدة منها بشكل كلي، ومثال الشق الأول الإنكار الكلي لوجود الله أو وجود إله مدبر للكون وما تبعه من أركان، أما الشق الثاني فإنكار الرسل كلهم –مثلاً– مع الاعتراف بباقي الأركان، أو إنكار واحد من الرسل والاعتراف بالرسل الآخرين، أو إنكار اليوم الآخر... إلخ، أما **الإنكار الجزئي** فهو الاعتراف بجزئيات من أركان العقيدة وإنكار جزئيات أخرى من نفس الركن، كالاعتراف بوجود الله وإنكار وحدانيته، أو الاعتراف بنبوة نبيّ وإنكار نبوّة نبيّ آخر، والاعتراف باليوم الآخر وإنكار وجود الجنة أو النار... إلخ.

ولقد بيّن القرآن الكريم قضية الإنكار المؤدي للجحود، "وهو ضدّ الإقرار، ولا يكون إلاّ مع علم الجاحد به أنّه صحيح"[14]، كفعل قوم هود عند دعوتهم لعبادة الله تعالى وتوحيده إذ قال تعالى: **﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾**[هود: 59]، أي "أنكروا آياته سبحانه في الآفاق والأنفس الدالة عليه تعالى حسبما قال لهم هود ﷺ"[15]، وقد جاء استنكار فعل الجحود في سياق الآيات الدالة على وجود الله تعالى في سورة غافر، وتخلله ذكر آيات كونية دالة عليه تعالى فقال جل ذكره: **﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾**[غافر: 63].

إن التفكير المنحرف هو العامل الأول في قيام الإنكار المسبب لانحراف العقيدة في كيان الإنسانية، فالأخذ بالمدخلات الحسيّة المنحرفة دون البحث فيها أو سماع تفاصيل مدخلات غيرها، أو الوصول إلى نتائج خاطئة مبنية على مقدمات فاسدة كفساد معطيات الحس لنقص في أداة الحس أو بعض شروط الإدراك الحسي أو فساد المادة التي بني عليها العقل أحكامه أو فساد صورة الفكر وشكله أو عدم وضوح الحق وعدم القدرة على تمييزه من الباطل أو بناء على الهوى والمصالح الشخصية للاستفادة يرجع إلى أسباب إثارة الشبهات على العقائد. هو السبب في وصول الإنسان إلى نوع من أنواع الإلحاد وما يلحقه من كفر وطغيان، فالإلحاد "العدول عن الاستقامة والانحراف عنها"[16]، وهذا الفرع من التفكير المنحرف قائم على إدخال المعلومات الخاطئة، وإيقاف التفكير عندها دون السماح للعقل ببحثها ضمن نطاق منهجي فكري سليم منضبط، وبما أن الإنسان يقيم أحكامه وفق ما تم انصباغه بنوع من معارف و"تصوّرات" فإن الحكم الاعتقادي المنحرف هو نتاج هذا النوع من التفكير.

إن هذا النوع من أنواع التفكير المنحرف هو الإنكار لأي فكرة صحيحة، ومخالفة البراهين البدهية والدلائل المنطقية في وجود أصول العقيدة عند الإنسان، والإيمان بالأمور المدركة بالحواس دون تحليل وتمحيص ودون إرجاع هذه الأمور محسوسة أو معقولة إلى قوة عليا، وعليه يكون قيام الإنسان في الحياة على انحراف معرفته بالحياة، انحراف عقله عن فكرة وجود الإله كواجب للوجود، وعليه يكون حصول التفكك بين ممكنات الوجود الإنسان والكون.

ويتمثل التفكير المنحرف المؤسس لدعائم الإنكار في صورتين: اتباع الشك والظن، وكلاهما لا يعتد به في قضايا العقيدة، حيث إن العقيدة الإسلامية لا بد أن تقوم على اليقين فيما جاءت به الرسالات الإلهية، والتسليم بالأمور الواردة فيها على أنها حقائق مؤكَّدة، مؤصَّلة من خلال الاقتناع العقلي والتفكير البنّاء. والتفكير المنحرف هو حال "الإنسان حين تفسد فطرته، وتُستغلق بصيرته، وتتعطل في كيانه أجهزة الاستقبال والتلقي، وينقطع عن الوجود الحي من حوله، وعن إيقاعاته وإيحاءاته"(17)، ولقد بيّن القرآن الكريم أن الله قد أرى الناس آياته، وجعلها متاحة أمامهم مهما تفاوتت قدراتهم العقلية فمن خصائص القرآن الكريم أنه يتناسب مع جميع مستويات العقول حيث يفهمه كل إنسان بقدر إدراكاته ومستوى تفكيره فقال: ﴿**وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ ايَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ**﴾[غافر: 81].

والعوامل المؤدية إلى ظهور قواعد التفكير المنحرف هي:

<u>الأول: الشك المؤدي للإنكار:</u>

للشك في لغة العرب معان كثيرة منها: أنه خلاف اليقين، والالتباس في الأمر. والتصاق الشيء بعضه ببعض، واختلاف النقيضين عند الإنسان وتساويهما(18) ولكننا هنا نعني بالشك ما يدل على التداخل(19)، والتداخل في القضية العقدية يعني قيام المعلومات الدالة عليها على اللبس والخلط، وهذان الأمران –اللبس والخلط– من أكثر الأمور المؤدية إلى الانحراف العقدي، وبما أن العقيدة تقوم على البرهنة بالأدلة العقلية، فإن وجود اللبس والخلط يعني وجود قصور في التمييز بين صحة الأدلة وخطئها من خلال تساوي الاحتمالات والأدلة الواردة تساوياً تامّاً في العقل، فلا يتشكل العلم اليقيني المبنيّ على الدلائل والبراهين؛ لأن العلم لا يتحصّل إلا بالدليل اليقيني، والدليل لا يكون يقينيّاً إذا خالطه الشك والاحتمال.

ولا تخفى خطورة هذا الأمر، حيث إن طروء الشك على وجود الله دون الاعتماد على أدلة يقينية عقلية يؤدي إلى خلل أو إيراد شبهات على وجوده وفي وجوده، يعنى أن أدلة وجوده وعدمها أمام الإنسان متساوية، وهذا التفكير المؤدي إلى الانحراف في النتيجة حيث يتبعه "التعطيل وهو إنكار وجود الله"(20) ووجود اقتناع عقلي مسبق بأن كل أمر يُراد منه التصحيح والتغيير بدون دليل يقيني مرفوض مسبقاً، وهذا يعني الإعراض المباشر دون محاولة إعمال العقل بصورة سليمة، لأن محاولة التفكير المشوبة بالتداخل والخلط قد تثير البلبلة في العقل، وتؤدي إلى إرهاق في التفكير، فيتجنب الإنسان هذه البلبلة وهذا الإرهاق بالتسليم الانهزاميّ على أن أي محاولة للاقتناع والإقناع.

ولقد عرض القرآن الكريم هذه القضية، وبيّن خطورتها، وما تؤدي إليه، ففي سورة إبراهيم عليه السلام جاء الحديث حوار الشاكّين مع رسلهم، وكانت ردودهم سريعة ومتضاربة، يتخبّطون في خلط ولبس للأمور، إنكاراً وكفراً بسبب شكّهم، ولقد تعجّب الرسل من ذلك الإنكار الجاحد مع وضوح الدلالة على وجود الله ووحدانيته.

والشك في القضية الاعتقادية الكلية يقتضي إنكار جزئياتها، فقال جل ذكره: ﴿**أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ابَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ**﴾[إبراهيم 10].

إن العقل السليم لمنكرٌ شكوكهم المستنكرة، إذ إنه يبطل الرجحان دون مرجّح(21)، ويبطل الدور والتسلسل(22)، ويستدلّ على وجود الله من خلال قانون العليّة (العلة الغائية)؛ ولما كان المنكر قد عطّل الفهم رغم وجود كل مقوماته، "فإنه لأبلغ دليل

على أن هذه القوة –الفهم– إنما هي من تدبير فاطر حكيم أوقفها عن الإنتاج في رأس هذا المنكر، جزاء لاستكباره، وتحقيقاً لسبب عقابه الخالد"[23].

كما أن الشاكّين الذين يتخذون من الإنكار عقيدة لهم عندما يلجأون إلى إنكار وجود الله تعالى يتخذون تحريف المسميات للبراهين المثبتة وجوده ذريعة للاستمساك بانحرافاتهم بجعل الحقائق خاضعة لإرادة الألفاظ، ومنساقة لرغبة الانحراف بالإنكار، فمثلاً عند اتخاذ برهان بطلان الدور في إقامة الحجة عليهم وإقناعهم فإن قلبهم للمسميات يجعلهم يحكمون على هذا الدليل بمنظور اقتناعهم المنكر بمسمى (التفاعل، أو التوالد الذاتي)[24].

ولقد اتخذت فئة الدهريين إنكار وجود الله تعالى عقيدة لها، "وهم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر، العالم القادر، وزعموا: أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه، بلا صانع، ولم يزل الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان، كذلك كان، وكذلك يكون أبداً وهؤلاء هم الزنادقة"[25]، وكان هذا المبدأ عند الشيوعيين الذين اتخذوه سبباً لإنكار وجود الله.

ثانياً: الظن المؤدي للإنكار:

وقد أشارت معجمات اللغة إلى معان كثيرة للظن منها: التردد الراجح بين طرفي الاعتقاد غير الجازم، وهو ما في معنى الشك اليقين أو هو خلاف اليقين، أو هو إدراك الذهن الشيء مع ترجيحه[26] إلى أن الظن قد يكون إيجابيّاً نابعاً من أقرب درجات اليقين، حتى لا يكون بينه وبين اليقين إلا استشعار الأمر بالحواس بظهوره للعيان كما في قوله تعالى: ﴿**وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ *الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾[البقرة: 45-46]، وتتنازل الدرجات حتى تنتهي بأدناها فيكون عندها ظنّاً سلبيّاً ليس بينه وبين الشك درجة وهو من المؤثرات الفعّالة في فساد العقيدة أو صحتها فقال تعالى: ﴿**وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً**﴾[النساء: 157].

والظن السلبي مرحلة متقدمة تقوم على الشكوك الموجبة للخلط في الأفكار، بل إن قيام البراهين ومدى موافقتها للفطرة وإقناعها للعقل في نظر منحرف التفكير لا قيمة لها ما دام الظن هو المسيطر على العقل والوجدان حيث يولد مزيداً من الإنكار، فربما يكون هناك اقتناع بوجود إله، ولكنه ليس الذي يدعو إليه ذلك الرسول، أو أن يكون الله هو الإله، ولكن ليس وحده بل هناك ما يجب أن يعبد معه، وقد يكون مقتنعاً بوجود إله واحد ولكنه ينكر اليوم الآخر، أو يكون مقتنعاً بوجود إله واحد، ولكنه ينسب إليه ما لا يليق به من اعتبار الملائكة بناته، أو اعتبار عيسى عليه السلام هو الله تعالى الله عن ذلك، "والظنون قد تكذب كلها، وقد يكذب بعضها إذا كانت في أمر واحد، مثاله إذا رأى جمع من بعيد جسماً وظن بعضهم أنه زيد وآخرون أنه عمرو وقال ثالث إنه بكر، ثم ظهر لهم الحق قد يكون الكل مخطئين، والمرئي شجر أو حجر، وقد يكون أحدهم مصيباً ولا يمكن أن يكونوا كلهم مصيبين"[27].

ومن البيان القرآنيّ لانحرافات العقيدة المنبعثة من اتخاذ الظن سبيلاً للتفكير –وساء سبيلاً–، أنه وضّح حقيقة الظن التي تبيّن أنه لا يقوم عليه حقائق علمية، بل هو ضرب من العبث الفكريّ الذي يقوده خلل عقليّ في استخدام قدرات الإنسان، فيقول تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ**﴾[ص: 27]، "والإشارة إلى القضية المنفية لا إلى نفيها، أي خَلق المذكورات باطلاً هو ظن الذين كفروا، أي اعتقادهم. وأُطلق الظن على العلم لأن ظنهم علم مخالف للواقع، فهو باسم الظن أجدر؛ لأن إطلاق الظن يقع عليه أنواع من العلم المُشْبِه والباطل"[28].

وقد تبيّن من خلال عدد من الآيات القرآنية قضية إنكار اليوم الآخر نتيجة لمنهج الظن العقليّ المنحرف، حيث إن الظانين يبنون معتقداتهم على احتمالات وافتراضات ذهنية نابعة من الوهم، فيظنون واهمين مثلاً إن الملائكة إناث، وهذا هو مبلغهم من العلم بالحقائق، فإن كل من ينحصر علمه في ظواهر الحياة الدنيا فهو عن الآخرة أعمى وأضل سبيلاً، لأن علمه مقيّد بالمدركات الحسيّة، وبما أن الملائكة بالنسبة للإنسان غير محسوسة فهي غير مدركة، ويوم القيامة سيرى الإنسان الملائكة، فكان نكرانهم لليوم الآخر وإيمانهم بوجود الملائكة موجب لنسب الملائكة للعالم الدنيوي المحسوس من خلال الوهم، ليستطيعوا إدراك حقيقتها المزعومة، ومثلها قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى * وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾**[النجم: 27-28]، وقوله تعالى: **﴿وَجَعَلُواْ الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾**[الزخرف: 19].

ومثال الاعتقاد المنحرف في أفعال الله سوء ظنهم بمشيئته تعالى حيث قال: **﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ﴾**[الأنعام: 148]، وهذا الاعتقاد مرتبط بانحراف ظنهم في اتصاف الله تعالى بالقدرة، فقدرة الله على هدايتهم ثابتة، إلا أنه لم يشأ أن تقع تلك الهداية، محتجين بذلك على الله، ولكن الحق أن المشيئة بالهداية موجودة في حال توجهت إرادة العبد إليها، أما إذا لم تتوجه إرادة العبد إلى الهداية وتوجهت إلى الضلال، فالمشيئة اقتضت أن يكون الواقع ما أرادوا.

إن بناء المنهجيّة السليمة لتشكيل التصوّر السليم للموجِد والموجودات لهو من أهم الأولويات في بناء الاعتقاد لدقة مسلكها، فلا بد من وجود طريقة سليمة لبناء المقدمات السليمة ليحصل بها التصوّر السليم، فالإيمان بالله تعالى إن لم يسر وفق منهجية سليمة قد يؤدي بالإنسان إلى انحرافات في تصور الذات الإلهية كالتشبيه والتعطيل والتمثيل والتكييف، فالمشابهة تصوّر الله جسماً أو جوهراً أو عرضاً، أو في مكان، أو في زمان، أو قابلاً للأعراض، أو محلاً للحوادث، فمثلاً التصوّر بأن لله يداً يؤدي إلى أن يُنسب له صورة حسية وهي اليد المرئية المحسوسة، وهذا من المشابهة لخلقه، وتصوّر الإنسان طريقة استواء الله على عرشه يجعله يمثلها كما هي لخلقه، وهذا ما "ادعاه أصحاب الصور وأصحاب الجهة والكرامية في قولهم إن الرب تعالى محل للحوادث"(29).

– "أما تعطيل الصفات الذاتية والمعنوية لله ﷻ وعن الأسماء والأحكام فهذا مذهب الفلاسفة الإلهيين ... إذ وصف الله بصفة يقتضي ذلك أن الوصف ذاته سبحانه"(30).

وقد يؤدي الظن بما يحمله من خلط والتباس في التفكير إلى الاعتقاد بالرسل بشكل مغلوط، كانحراف الاعتقاد بعيسى ابن مريم بأنه هو الله، قال تعالى: **﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾**[المائدة: 727]، أو اعتقاد التثليث فقال تعالى: **﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**[المائدة: 73]، فالظانون يتبعون(31) العلم فيقفون على حقيقة التوحيدِ وبطلانِ الشركِ ولكن لا يقبلونه مكابرةً وعناداً(32).

المطلب الثاني: الانحراف الاستكباري الموجّه لانحراف الاعتقاد:

والسبب الثاني لأسباب الانحراف الاعتقادي هو الانحراف الاستكباري، وهو: وجود أسباب تدعو إلى تعاظم النفس أمام ما توصّلت إليه من معارف يقينية بسبب مخالفة هذه المعارف لهواها، أو انحراف الهوى والميل القلبيّ إلى غير الإيمان لوجود دافع يؤدي بالإنسان إلى مخالفة الحقائق اليقينية المثبَتَة بقيام الاقتناع العقلي، وقد وردت آيات كثيرة في إثبات أن الاستكبار سببه الهوى فقال تعالى: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾**[البقرة: 78].

وهذه مرحلة جديدة من مراحل الانحراف، إلا أن الدافع للانحراف هنا خارج من النفس لا من العقل، فقد حصل الإقتناع العقلي، إلا أنه لم يؤثر في القناعة النفسية لميل النفس إلى ضدّ ما وصل العقل إليه، ولقد كان إبليس أول المستكبرين في تاريخ الحياة كلها، وأبرز المستكبرين من البشر على الإطلاق فرعون الذي حدا به استكباره أن يتعالى على الله ويدّعي أنه هو الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى.

والكبر شعور استعلائي يمارسه بعض مرضى النفوس ممن يُعجبون بأنفسهم لما يملكونه من متاع الدنيا، فتحتل (الأنا) في نفوسهم نفوذاً لا يمكن تجاهله، بسبب اطمئنانهم بالحياة الدنيا كما قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾**[يونس: 7-8]، مما يكوّن عندهم شعوراً بالعظمة والتعالي عن الإذعان إلى أمر يساويه مع غيره، أو يهدم تلك الرفعة والعظمة التي نصبها لنفسه، مما يجعله يبحث عن أي فجوة أو نقص بالآخرين ليقيم لنفسه الرفعة الذاتية باتخاذ الماديات أسساً لقيام مقاييسه العقلية، وأحكامه الاعتباريّة، فيحتقر هذا، ويزدري ذاك، ولا يرى إلا من كان مثله أو أكثر منه رفعة وتعاظماً في مقاييس الدنيا، وقد بيّن القرآن الكريم بعض أسباب إنكارهم بقوله تعالى: **﴿وَقَالُواْ مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً*أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً﴾**[الفرقان: 7-8].

وأما إنكار أصحاب هذا الجانب من الانحراف أمام دعوة الله فله عدّة دوافع، كعدم العلم بأن الإنسان هو أفضل المخلوقات؛ فإنه يشكّل عندهم التصوّر المنحرف في أن هناك مخلوقات أفضل من البشر، وأن الأنبياء لا بد أن يكونوا أفضل البشر، إذن فلا بد أن يكون الأنبياء من تلك المخلوقات، وأن هناك من هم أفضل منهم، ومنها اعتقادهم بأن الملائكة أفضل من البشر، وأن النبيّ يجب أن يكون من الملائكة، كما جاء في قوله تعالى: **﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً * قُل لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً﴾**[الإسراء: 94-95]، وقد أبطل القرآن هذا الاعتقاد الفاسد عندما بيّن بداية خلق آدم بأن الله تعالى سوّى آدم بيديه، ونفخ فيه من روحه، وذكر كيف كرّم آدم بسجود الملائكة، فمن الأكرم عند الله الساجد أم من سُجد له؟!

ويعتقد آخرون من فئة المستكبرين أنهم إن سلّموا أن الله هو الخالق المالك لكل شيء هو الذي بعث هذا النبيّ الذي لا يملك من الدنيا ما يملكون، فهم أحق من هذا النبيّ في هذه الدعوة، إذ إن هذا النبي لم يصل إلى ما وصلوا إليه من ملك الدنيا، فيرفضون الاستجابة له، ويأخذون في دحض هذه الدعوة وفق مقاييس الدنيا كل مأخذ، حتى يصل بهم الأمر إلى الإنكار والكفر، وقد بيّنت هذه الفئة قصة قارون إذ قال تعالى: **﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾**[القصص: 76]، وينتهي به بغيه أن يستعلي ويدّعي التفرد في الملك: **﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾**[القصص: 78]، إلى أن ينتهي الأمر به أن يخسف الله به وبداره.

ووجه آخر من وجوه الاستكبار اتباع المستكبرين، وإلغاء العقل تسليماً لأمر المستكبرين، فتكون عقول هذا النوع من الناس معطّلة، وقراراتهم لا تخرج عن قرارات المستكبرين لاعتقادهم أنهم أقدر منهم على التفكير، اغتراراً بمظهر الحياة الدنيا، كأتباع فرعون الذين استكبروا عن الحق كما استكبر، قال تعالى: **﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ﴾**[القصص: 39]، وقال في موضع آخر: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ*إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾**[هود: 97].

ودافع هذه الفئة من الناس إما الجهل، أو الخوف، أو الاغترار بما عند غيرهم، فالجاهلون يجهلون الحقائق التي تتعلق بالذات الإلهية، فيفترضون افتراضات لا يعلمون خطورتها كما في قوله تعالى: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾**[البقرة: 118].

والوجه الأخير من المستكبرين هم الذين لا يصدّقون النبيّ في عرضه لفكرة اليوم الآخر بناء على عدم تصورهم له لعدم وقوعه تحت حواسهم، فاعتقادهم باستحالته يجعلهم يطلبون الطلبات التعجيزية من النبيّ، وبيّنت هذه الفئة الآية الكريمة من سورة الفرقان إذ قال تعالى: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُواْ فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً﴾**[الفرقان: 21].

إن الاستكبار موجب للجحود بما جاءت به الرسل، لأن المستكبر تزيّن نفسه أمامه الانحرافات والصد عن السبيل، ويخدع بزبد الباطل الذي يطفو على الوجه، فيؤدي به إلى التكذيب والاستنكاف، والإنكار بكل الوسائل والسبل، يقول تعالى في وصف ردّة فعل فرعون وقومه: **﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾**[النمل: 14]، فتزيين الباطل أمام الإنسان بدافع الهوى، واتباع خطوات الشيطان في الإنكار والاستكبار، وما يسوّلان به، ويأمران به –النفس والشيطان– من جحود، يجعل النفس وكأنها على يقين من صحة فعلها، وهذا يستدرجها إلى دركات الهلاك، فتسهل لصاحبها إيذاء الرسل ومن اتبعوهم للمحافظة على مكانته وموقعه بين الناس، وحرصاً على التمسك بانحرافاته، يزداد إنكاراً وطغياناً.

المبحث الثاني
أسباب الانحراف العقدي المؤثرة

ويُقصد بأسباب الانحراف المؤثرة: هي تلك الأسباب والدواعي الخارجية التي تؤثر على المعتقدات فتؤدي إلى تشويهها وعدولها عن الحق إلى الباطل من خلال استخدام أساليب ووسائل تضمن التأثير على الإنسان كفرد، وعلى الناس كجماعة، حتى تصل –أحياناً– إلى درجة التوجيه العمليّ للانحراف العقديّ.

والتأثير في هذه الأسباب يكون شديداً على الفئة التي أخذت من الأسباب الموجِّهة حظاً، فكان الانحراف هنا تعزيزاً لهذا الجانب في الإنسان حتى وصل إلى قمة الانحراف، فمن كان عنده شك دُعمَ شكُّه ليزداد حتى يوصله إلى الانحدار، ومن كان ذو ظن في اعتقاده يُعزز ظنه، ومن كان صاحب هوى ميّالاً إلى غير هدى يوضع أمامه ما يؤكّد زيادة هذا الهوى ليتخلى صاحبه عن اعتقاده ...، وهكذا حتى يصل أصحاب التأثير إلى إقامة دعائم الانحراف العقدي من خلال اتخاذ وسيلة التأثير بأساليب وسبل شتى.

ويكون سبب الانحراف العقدي الناتج عن هذه المرحلة دخول معلومات مغلوطة أصلاً تستقر في عقل الإنسان، فإما أن توافق شكه وظنه، أو توافق هواه، أو تشكّل بيئة جماعية تتبنى الاعتقادات الناشئة عن المعلومات المغلوطة، فالتأثر منبعه أمران: إما المخالطة، أو من خلال تشويه العقيدة السوية أمام أتْباعها، وكلا الأمرين من خارج الإنسان، إذ لو كان البناء العقدي للإنسان متيناً ومكيناً؛ فلا يكون لهذين الأمرين تأثير في الانحراف عن العقيدة السويّة عند الفرد أو حتى الجماعة، لأن المتانة والمكانة يعني تمام الإحكام، وكلما أحكم البناء صَعُبَ تأثير العوامل الخارجية فيه.

وتتفرع هذه الأسباب إلى ما يلي:

السبب الأول: التأثير التلقائي الطبيعيّ المسبب لانحراف الاعتقاد:

والمقصود به: ما كان للعقائد المختلفة من الديانات والحضارات الأخرى من تأثيرات نتيجة الاحتكاك الإنسانيّ والتعامل الاجتماعي والاختلاط البشريّ المؤدي للاكتساب التلقائي الناتج عن تبني معتقدات أخرى تقوم على أساسها التعاملات الإنسانية.

إن هذا النوع من التأثير من طبيعة البشرية، حيث إن دوافع هذه المخالطة المؤثرة هي تبادل المنافع المادية والمعنوية، والجانب المعنوي من هذه المنافع شاملٌ للتبادل الفكريّ، وقد تتفرع العلاقات التي بدأت بعلاقة المنفعة المادية بتكرار التواصل الماديّ وزيادة التعامل القائم على المنفعة فيتم توطيد العلاقات إلى حدٍّ يصل إلى وصفها بالعلاقات المتينة.

وهذه العلاقات سواء أكانت متينة أم لا، تُحيي عوامل التأثر والتأثير الطبيعيّ في الإنسان، فيشملان جانب الاعتقاد، وهذه العملية التأثيرية إن لم تقم على جانب منهجيّ تؤدي بالإنسان إلى اكتساب معارف منحرفة وأفكار خاطئة ومعلومات وهميّة يبنى عليها أصول فكريّة يتبناها العقل ويؤصِّلها كمعتقدات له، ويغيّر سلوكاته حسب ما تقتضيه تلك الاعتقادات الفاسدة قصداً أو دون قصد، فتكون عملية تغيير مستمرّة نتيجة لاكتساب معارف جديدة وخوض تجارب جديدة، لأن عملية التأثّر والتأثير تجعل من استمرارية التحولات الاعتقادية في الفرد تحوّلات اعتيادية، وذلك يعود إلى القدر الذي يأخذه جانب الاختلاط، فكلما زاد الاختلاط زاد التأثّر والتأثير بشكل مكثّف وسريع، وكلما قلّ الاختلاط قلت العملية التأثيرية، مما يؤدي إلى تضاؤل الاستمرارية والكثافة في الاكتساب الاعتقادي.

وهناك عامل آخر يؤدي إلى تسهيل السبل أمام الانحراف العقدي ليأخذ مجراه في الفرد، هو عامل الإعجاب بالآخر، هذا العامل يؤدي إلى محبة الآخر والتقرب منه والأخذ منه ما هو سبب الإعجاب، وربما يكون لضعف الإنسان أمام الآخر دور في اكتساب الاعتقادات المنحرفة بيسر وسهولة وبسرعة في آن واحد، ويجعل الاكتساب للاعتقادات المنحرفة يمتاز باليسر والسرعة في آن واحد، وهذا الأمر كفيل بزيادة فعاليّة الاعتقادات السقيمة عند توجيهها لسلوك الفرد، وتحكمها في إصدار قراراته.

إن المخالطة المؤثرة تشكل بيئة خصبة أمام تغير الإنسان، وتنوّعها ينشئ خطر الاكتساب السلبي للاعتقادات المنحرفة، ولربما تتطوّر العلاقات فيكون هذا صديقاً، والآخر حبيباً والثالث صهراً ... إلخ، ومن خلال تبادل الحوارات والأفكار، واستخدام أساليب الإقناع، يكون الآخر قد استوعب كثيراً من العقائد بِقَدْرِ التنوّع التعامليّ بين أصحاب العقائد المنحرفة، فيتبنّى بعضها، ويتغاضى عن الآخر، حتى يشكل في ذهنه مركزاً لاعتقادات متنوّعة ومنحرفة.

ولقد بيّن القرآن الكريم "أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان"[33]، لأن أصل البناء الإنساني لا بد أن يقوم على اجتماع الناس على أساس الأصول الاعتقادية الإلهية، لأن المبتدأ والمرجع إلى الله تعالى، وعلى أساس الاعتقاد السليم به يقوم بناء العلاقات الإنسانية بكل ما يتبعها من تفاصيل عقدية، قال تعالى: **﴿يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ**

أَوْلِيَاءَ إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[التوبة: 23]، لأن التأثر بمعتقدات الآخرين المنحرفة أمر لا بد منه ما دامت العلاقة قائمة على أصل منحرف، فإن تفاصيل أي علاقة تندرج تحت أصلها، والعلاقات القائمة على أسس غير عقدية مكان لإيجاد الدخيل على عقيدة الإنسان، واتخاذ هذا الإنسان الشرك والفسق والنفاق عقيدة له استدراجاً، لأنها من دواعي إيجاد التقليد في المجالات الحياتية والتعاملية كافة، وهذا التقليد يأتي من خلال اعتناق المعتقدات المترسبة والمؤثرة على الإنسان المستقيم.

وللتقريب المنحرف المؤدي إلى انحراف العقيدة عدّة وجوه، **فالأول منها** تغليب العلاقات الفطرية على العلاقات العقدية كاتخاذ الآباء والأبناء والأزواج والإخوان وسائر الأقارب الذين تفرض الرحم القرابة بينهم، ولها دور بارز في انحراف العقيدة، إذ إن العقيدة ستكون توارثاً بين الأجيال، وهذا التوارث يصل بالإنسان إلى مرحلة عماء التفكير، أو الانقياد للانحراف دون تفكير، والاستمساك بهذا الانحراف كحجة بيّنة، وبسبب دوامها تتحول من أسباب مؤثرة إلى أسباب موجّهة يكون التقليد عبر سلسلة وراثية، فتتوارثها الأجيال كابراً عن كابر، أو سلسلة اجتماعية من عادات وتقاليد، تقيّد الإنسان قيداً يخشى محاولة الفكاك منه لوجود توابع لهذا الفكاك، وكان للعادة دورها في تثبيت المعتقدات خلال طول المدة الزمنية، فكلما اعتاد الإنسان على فعل أمر عطّل فكره عن نقد ما اعتاد عليه، وكلما عطل فكره مال الهوى إلى ما اعتاد عليه لاتصافه بالأريحيّة، خصوصاً أن الانحرافات العقدية التي شملتها تلك العادات لا بد لها من أصل وموجد، وهذا الأصل إما انحراف تفكير أو انحراف هوى، وتتابع الزمان عليها يوجد اقتناعاً بأنها تلبي الرغبات والحاجات، وهذا شأن المستمسكين بالانحراف التقليديّ أو الانحراف الاعتياديّ.

وكان لهذا الأمر في القرآن الكريم بيانه الخاص، حيث إن من أقوال الصّادّين عن السبيل ومن حججهم الواهية وعقيدتهم المضلّة عقيدة (إنا وجدنا آباءنا)، وتتالت الآيات في بيان هذا الأمر فقال تعالى: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾**[البقرة: 170]، فجاءت هذه الآية في سياق الحديث عن براءة المتَّبَعين من المتَّبِعين يوم القيامة، وقد تبعها النهي عن اتباع خطوات الشيطان، والشيطان أساس الانحراف العقدي وتعطيل قدرات الإنسان لغوايته، فلا يعقلون شيئاً لأنهم عطلوا تفكيرهم وتمييزهم، ولو عقلوا لعرفوا الحقّ واتبعوه، ويترتب على من لا يعقل أن لا يهتدي.

وبسبب طول المدّة يُتوهّم أن الانحراف الاعتياديّ الذي اعتنقه المنحرفون هو مما أمر الله به، لأنهم لا يعرفون أصله والأساس الذي بُنيّ عليه، فينسبون سوء فعلهم لأمر الله –تعالى عن ذلك–، ومنبع هذا الاعتقاد تراكم الانحرافات عبر الأجيال، فكل جيل يضيف انحرافاً على ما وصل إليه من سوء اعتقاد، حتى يصل الأمر بهم أن يعتقدوا أن الآمر هو الله، فيكون تمسكهم بانحرافهم راجعاً إلى اعتقادهم أن ما يفعلون من أمر الله، وأن أي أمر مناقض لاعتقادهم هو الخطأ والانحراف فقال تعالى: **﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾** [الأعراف: 28].

ووجه آخر للتقريب الموصل إلى انحراف الاعتقاد هو تقريب الأخلاء والأصحاب المعتقدين اعتقادات منحرفة، فإن له أثراً بارزاً في التأثير على انحراف الاعتقاد وتعطيل الفكر، والإتباع الضال، يقول تعالى: **﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً*يوَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً*لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً﴾**[الفرقان: 27]، حيث إن هذا النوع من التقريب كان له أثر واضح في انحراف الإنسان وكفره رغم وصول الحق

إليه، "والخليل من الخلة بضم الخاء بمعنى المودة أطلق عليها ذلك إما لأنها تتخلل النفس أي تتوسطها .... وإما لأنها تخلها فتؤثر فيها تأثير السهم في الرمية، وإما لفرط الحاجة إليها"[34].

والوجه الثالث للتقريب المؤدي إلى الانحراف العقدي والمؤثر فيه هو الكفار من أصحاب الديانات الأخرى وأصحاب العقائد الفاسدة، ولهذا السبب من أسباب الانحراف دور بارز في التأثير على العقائد وتحريفها، لأنه اكتساب أفكار واعتقادات أديان تم تحريفها أصلاً، واتباع فئات منحرفة لأن عقيدتها وضعيّة ظاهرة بمظهر العقائد الإلهية، وإدخال عادات وتقاليد المنحرفين، وتدرج في اتباع أهوائهم.

إلا أن هذا التقريب قائم على رغبة الإنسان نفسه في إعطائهم المكانة والمقام، دون أن يحاولوا أن يجتذبوه إليهم، ويكون منشؤه مرض القلب من المنحرف، حيث إن المحب للكافرين متبع لهم في أمور حياتهم واعتقاداتهم، وهذه الفئة من معتقدي الكفر تظهر الاستقامة وذات خطر كبير على الآخرين، وهم قد خرجوا عن الاستقامة فيتبعهم المغتر بهم فيكون يهودياً أو نصرانيّاً أو غير ذلك وهو لا يشعر، فيتبع أهواءهم[35]، ويطيع أوامرهم[36]، ويركن إليهم[37]، ويداهنهم[38]، ويتخذهم بطانة من دون المؤمنين ويظهر الود لهم[39]، ويقرّبهم إليه، ويشاورهم في الأمور، ويعاونهم على ظلمهم وينصرهم، ويتشبه بأعمالهم ... إلخ[40].

<u>**السبب الثاني: التأثير المقصود لتحريف الاعتقاد:**</u>

وهو التأثير من خلال قيام سلسلة العمليات التشويهية المقصودة وتدبيرها، ولها أهلها ومقاصدها وأساليبها، وهي استغلال المخالطة الإنسانية لحرف الناس الذين كان اعتقادهم ركيكاً مهزوزاً، واستهداف الراسخين في سلامة الاعتقاد؛ إما لزعزعتهم أو لحربهم، من خلال إيجاد المداخل الموصلة إلى عقيدتهم لحرفها كلياً أو جزئياً.

وقادة هذا السبب هم من يأمرون بالانحراف فيطيعهم من والأهم من المنافقين المغترين بهم، وله أسباب فرعية هي الغيظ والحسد، وهي تابعة للهوى، فلا يملأ القلب الغيظ إلا من ظهور أمر خالف هواه، ولا يحسد إلا من ارتفع فوق مستواه، وغالباً ما يكون هذا حال اليهود والنصارى، حيث إنهم كانوا على اعتقاد سليم، وبعد مرور زمن اختلط الحابل بالنابل فأدخل الأحبار والرهبان في عقيدة الحق ما ناسب هواهم –عن علم– ليبتغوا عرض الحياة الدنيا، وليسير الناس تحت إمرتهم وطاعتهم، حتى اتخذهم الناس أرباباً من دون الله، وهم الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله، ويكنزون الذهب والفضة ... إلخ، فنشأ الانحراف العقديّ في أتباع دينهم.

أما انحرافاتهم في عقيدتهم فإنهم ينسبون إلى الله ما ليس لهم به علم فيقولون على الله الكذب وهم يعلمون، فتقول اليهود يد الله مغلولة، أما النصارى فنسوا حظّاً مما ذكروا به، وقالت الطائفتان بأنه لن يدخل الجنة إلا من كان منهم، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وتعاركت الطائفتان إذ غرتهم الأمانيّ، فقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء، إلى أن وصل الأمر بكل من الطائفتين أن يضعوا لهم إلهاً، فزاغت اليهود ونسبت الألوهية لعزير، وزاغت النصارى ونسبتها للمسيح، فكانت العقائد المدسوسة والتشريعات المسمومة سبب انحراف أتباع هاتين الطائفتين.

أما موقف هؤلاء المتألّهين وأتباعهم من أي عقيدة تظهر الحق، فهو إرادة إطفاء نور الله بأفواههم –والله متم نوره– كي تبقى لهم السيادة في الأرض، فيحيكون المكائد، ولا يدخرون أيّ جهد ليضلوا عن سبيل الله من آمن به يبغونها عوجاً، فيؤمنون أول النهار بدين الحق، فإذا لقوا المؤمنين قالوا آمنا، وإذا خلوا عضوا عليهم الأنامل من الغيظ، فإذا جاء آخر النهار يكفرون، آملين أن يرجع الناس عن دين الحق كافرين، كل هذا بسبب الحسد الناشئ من عند أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحق، لأنهم ودّوا لو يكفر أصحاب العقيدة السويّة كما كفروا ليكونوا سواء، ومن أكثر أساليبهم جلاء أنهم يكتمون الحق

والاستقامة وهم يعلمون، غلوّاً منهم في دينهم، والسبب الذي يجعلهم ينقمون من ذلك هو إيمان أتباع العقيدة الحق بالله وما أنزل من الحق وما أنزل من قبل إلا الحق، وكل ذلك يسير تحت إمرة قادة قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل، فقد كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، فوصل بهم الأمر إلى أن حرّفوا الكلم من بعد مواضعه.

إن وجود هذه الفئة من الناس هو من أحد أهم الأسباب المؤثرة في انحراف العقيدة، حيث إن لهم من الإصرار على الإضلال ما يجعلهم يخترعون من الأفكار التي تناسب حاجة كل نفس، مما يؤدي إلى انتشار أتباعهم في الأرجاء كافة، وبما أن القرآن هو الحق وآخر كتاب نسخت به كل العقائد والديانات السابقة، كان لا بد لهم من التصدي لتحريف عقيدة الحق، فكان منهم الغزو الفكريّ والعسكريّ، والسياسات التكتيكية لإخراج الناس من عقيدة الاستقامة إلى ظلمات الانحراف.

الفصل الثاني
مظاهر الانحراف العقدي (الفساد والفرقة الاعتقادية)

ويقصد بالمظهر ما استبان بجلاء نتيجة وجود أمر ما كان سبباً في وجوده، وعليه فإن مظاهر الانحراف العقدي ما نتج واستبان من أحوال حياتية واقعيّة كان منشؤها وسبب وجودها اتخاذ الانحراف العقدي منحىً ووجهة، والقاعدة المنطقية تثبت أن ما كان نتاج الاستقامة كان مستقيماً، وما كان نتاج الانحراف كان منحرفاً، وبناء على هذه القاعدة يُحكم على كل ما كان سببه الانحراف بالانحراف، لأنه خالف الاستقامة في أصله.

إن قيام دعائم الانحراف في الاعتقاد مستمرّ على طول المدّة الزمنية؛ يزيد من تبعات هذا الانحراف، ويطوّر حدّة سلبياته، ويرفده بجماعات تحيي أسبابه وتؤصّل أساليب وجوده، حتى طغت مظاهره من فساد ناتج عن فساد وإفساد، وفرقة نتجت عن اختلاف وانحياز.

وعلى ذلك جاء هذا الفصل في مبحثين:

المبحث الأول
مظاهر الفساد الاعتقادي

لما كان منبع السلوك الإنساني هو الاعتقاد، فإن الاعتقاد المنحرف عن الاستقامة يشير إلى أنه اعتقاد ضالٌ فاسد، وإذا كان فاسداً فمآله إلى زوال، لأن أصل الشيء الصحة والصلاح، فإذا اعترضه عارض فإن سقم كان ذلك عارضاً يزول مهما طال، فإن لم يزل من الإنسان نفسه عمّ زواله على هذا الإنسان، وحكم الزائل البطلان، والبطلان هو الضيَاع والخُسْران[41]، قال تعالى: **﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾**[آل عمران: 85]، "والخسران في الآخرة هو حرمان الثواب وحصول العقاب، وقيل: أصل الخسران ذهاب رأس المال، والمراد به هنا تضييع ما جبل عليه من الفطرة السليمة"[42]، وقد تمثلت مظاهر الفساد الاعتقادي بالظواهر التالية:

- **الظاهرة الأولى: ظاهرة التكفير:**

وهي ظاهرة نشأت فيمن يتسارع إلى تكفير كل من يخالف مذهبه، إلا أن معرفة كون الإنسان كافراً أو مسلماً لا يكون إلا بالشرع[43]، كما أن القول بكفر أحد أو فرقة هو من باب إصدار أحكام يترتب عليها عدّة أحكام أخرى، "ومعناه أن السبب الذي جرى هل نصبه الشرع مبطلاً لشهادته وولايته ومزيلاً لأملاكه ومسقطاً للقصاص عن سيده المستولي عليه، إذا قتله، فيكون كل ذلك طلباً لأحكام شرعية لا يطلب دليلها إلا من الشرع"[44]، وهناك أصل يُستند عليه في إصدار الأحكام

وهو الكتاب والسنة، "والأصل المقطوع به أن كل من كذب محمداً ﷺ فهو كافر أي مخلد في النار بعد الموت، ومستباح الدم والمال في الحياة، إلى جملة الأحكام"[45].

إن العلاقة بين وجود هذه الظاهرة والانحراف العقدي بيّنة، حيث إن قادتها من الفرق والمذاهب قد اتخذوا تكفير الآخر حجة للقتل، والنصب، والاغتيال، وانتهاك الأعراض وسلب الأموال، حتى بالغ الكثير منهم في الأمر فهتكوا حرمات من تلفظ بالشهادتين وخالف مذهبهم دون النظر لأنفسهم هل تأكدوا أنهم اتبعوا الحق أم لا؟ وهذا يأتي من الظن لكل من حكم بالكفر على غيرهِ بأنه هو على حق، بل وينحصر الحق فيه وفي مبادئه، وهذا مظهر فساد الاعتقاد وغياب الحق عن النفس.

فلا يحكم على الكافر بكفره إلا بعدّة وجوه تحكمها الحيطة والحذر، وليست ضرباً من العبث والتسرّع، وليست أيضاً مجالاً للغو من القول، أما الوجوه فهي:

1- إما بما ورد في الكتاب والسنة من كفر من وصفه الله بالكافر خصوصاً أو عموماً، أو من أنكر أركان العقيدة الثابتة قطعاً إنكاراً كليّاً أو جزئيّاً[46].

2- ما كان في التصرفات الظاهرة من إنكار عبادة مفروضة، أو شتم الذات الإلهية أو أحد الأنبياء أو أصحاب رسول الله ﷺ ... أو أي أمر في الدين لا يجوز ذمه.

3- الأُمور الخفية التي تحتاج إلى كشف وبيان، بعد إقامة الحجة التي يكفر بموجبها؛ فتتوافر الشروط، وتنتفي الموانع، وتزول الشبهة عن الجاهل والمتأول، وهذا الأمر يحتاج إلى علماء ثقات، وعارفين بقضايا الاعتقاد، للحكم من خلال منهجية سليمة، والنظر في الأمر برويّة؛ لأن إصدار حكم بالتكفير أمر في غاية الخطورة، فالتسرع به دليل على انحراف الاعتقاد أصلاً، لأن الدين لا يقوم على الاعتداء ولا الإكراه، لقول النبي ﷺ: "إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا"[47].

- **الظاهرة الثانية: ظاهرة الغلوّ في الدين:**

إن الأصل اللغوي لكلمة الغلو (غلو أو غلي)، يدل على "ارتفاع ومجاوَزةِ قَدْر"[48]، ومن هذا الأصل يتبيّن أن الغلو هو الإفراط في اعتقاد ما ينبغي أن يكون عليه الشيء، الناشئ عن غلبة العقل على الشعور وهو غلو اعتبار، أو غلبة العاطفة على العقل ويسمى غلو المكانة، ولكليهما ردود فعل سلبية مُخِلَّة، لأنهما نابعان من عدم التوازن الاعتقادي، فالعقيدة الإلهية الصحيحة تأمر بالعدل، لذا جاءت لتقيم الاعتقاد المستقيم المتوازن بين الغلو والتقصير، فتعطي كل جانب من جوانب الإنسان فرداً وجماعة حقه، وتوازن بين وجوب إقامة حقوق الله وحقوق النفس وحقوق الناس، وتوازن بين ابتغاء الحياتين الدنيا والآخرة، والمغالاة في الاعتقاد زيادة مبدأ على مبدأ، وابتغاء حياة وإخلال في أخرى، وتغليب رأي على آخر، وأصل هذا الأمر النظرة الجزئية للعقيدة الصحيحة-، وتغليب جانب وإهمال آخر بسبب النظر القاصر، أو الهوى المتبع.

وقد نهى القرآن الكريم عن الغلو بشكل عام، وجاءت آية النهي في سياق خطاب أهل الكتاب، إلا أن النهي لا يختص بهم فقط، إنما هو لكل من تجاوز الحد في ذلك، ودليل ذلك أن الآية السابقة للنهي عن الغلو كانت خطاباً للناس جميعاً، مبيّنة أن النبيّ ﷺ قد جاء بالحق فقال تعالى: **﴿يأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُواْ خَيْراً لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ للَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً * يأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ وما فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾**[النساء: 171].

وغلو الاعتبارات هو اتخاذ العقل ذريعة للخوض في تفاصيل القضايا الاعتقادية دون ضابط شرعيّ، مما يؤدي إلى تغليب العقل على النص، وإخضاع ما لا يُتصوّر من قضايا عن الذات الإلهية والغيبيات إلى الحس والعقل، مما يؤدي إلى انحراف هذه الفئة عن الاستقامة المتوازنة في الاعتقاد، ويؤدي إلى الشطط في الاعتقاد والقول.

وقد بالغ أصحاب هذه الفئة في اعتبار التصوّرات الاعتقادية كإخضاع الذات الإلهية للحس، فأطلقوا الخيال، وقارنوا بتفكيرهم بين الله تعالى وخلقه، فتكلفوا في تقرير الشبه وعدمه، ومنبع هذا الأمر الجهل والعتو والاستكبار والطغيان، ورفْض تصوّر وجود من لا يخضع للإدراك، فاتخذ الجهمية تعطيل الصفات ونفيها عقيدة حتى أفرطوا فقالوا إنه -تعالى- ليس بشيء، ونحى المشبهة منحى إثبات الصفات مع الغلو حتى قالوا بالتجسيم فاعتقدوا أنه مثل خلقه، فجعلوا لله المِثل وهو ليس كمثله شيء.

كما بالغ أصحاب هذه الفئة في اعتبار الأحكام التشريعية الاعتقادية عند الفهم الجزئي للعقيدة الصحيحة، فذهب الخوارج[49] إلى تغليب نصوص الوعيد وأهملوا نصوص الوعد عند حصر أفهامهم، مما حدا بهم إلى تكفير مرتكب الكبيرة، وإخراجه من الملة واستباحة دمه واعتقاد أنه يوم القيامة خالد مخلد في النار، وذهب غلاة المرجئة[50] إلى عدم التفريق بين مرتكب الكبيرة وبين المؤمن الكامل الذي أدى الطاعات وتجنب المحرمات، لأنهم غالوا في اعتبار نصوص الوعد وأهملوا نصوص الوعيد. وهكذا في القائلين بالحرية الإنسانية الذين بالغوا في اعتبار قدرة الإنسان على خلق أفعالهم، والقائلين بالجبر الذين ينسبون الفعل إلى الله تعالى، ولا فعل للإنسان إلا مجازاً.

أما غلو المكانة فهو تجاوز الحد في إعطاء المكانة لمخلوق، والتعظيم والتبجيل لغير الله تعالى تغليباً للعاطفة في المحبة أو عاطفة الاتباع، ومنها اعتقاد النفع والضر لغير الله كتعظيم النبيّ ﷺ، والاعتقاد أنه ينفع ويضر مع الله، أو اتخاذه واسطة التقرب، أو اعتقاد أن منه المدد، ومما كان من غلاة الصوفية[51] في محبتهم للرسول ﷺ، حيث نظروا إلى جانب التعظيم وأهملوا جانب التوحيد، وعاطفة الاتباع برزت في تعظيم فئات من الناس لأصحاب رسول الله ﷺ كما ظهر في المغالاة في علي ﷺ والحسن والحسين وبقية آل البيت[52]، وإعطائهم المكانة التي لم تعط للرسول ﷺ. وهذه العاطفة تمتاز بالهجومية الشراسة غالباً، أو الغلو في مكانة شخص ما وغالباً ما يكون هذا منحى الجاهلين الذين تعلقوا بشخص امتاز بالصلاح، كما فعلت الطائفة العدوية التي تبعت عدي بن مسافر الهكاري "وجاوزت حين اعتقادهم فيه الحد، حتى جعلوه قبلتهم التي يصلون إليها، وذخيرتهم في الآخرة التي يعولون عليها"[53].

ومن الغلو في المكانة الغلو في الفكرة كالمغالاة في مفهوم الإمامة عند الشيعة ومفهوم الإيمان عند الخوارج، وإعطاء العقل قيمة جعلته حاكماً على النقل عند المعتزلة ... وغير ذلك من الأفكار التي لا مجال للاتساع في ذكرها، كما يظهر في الغلو في الأشخاص أو فيهما -الفكرة والأشخاص- معاً، ويظهر ذلك أكثر ما يظهر عند البسطاء من المؤمنين الملتزمين بفكرة ما نتيجة التأثيرات التي تحدثنا عنها سالفاً، إما لهوى وإما لمحبة شخص ما وإما لمصلحة شخصية وإما لتأثر بواقع ما ... إلخ.

- <u>**الظاهرة الثالثة: ظاهرة الفساد بالانحلال الأخلاقي:**</u>

إن الفساد الأخلاقي الناتج عن الانحلال السلوكي يعد وجهاً آخر من أوجه الغلو، إلا أنه غلوٌّ في فصل العقيدة عن السلوك والمبالغة فيه، وهو من أحد المظاهر الجليّة للانحراف العقدي بانحراف الإنسان عن أهدافه التي خُلق لأجلها، ذلك لأن الارتباط بين العقيدة والأخلاق أمر لا بد من وضوحه في فكر الإنسان، فالربا، والزنا، والقتل وشرب الخمر ... إلخ، كلها استباحات إنسانية، وتحرر من القيود الأخلاقية، وشطط حياتيٌّ عن المنهج الإلهي، ومنشأ ذلك كله انحرافات في الاعتقاد بالله تعالى، والتصرف في ملكه بما لا يرضى، فيكون المنحرف من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، وتفعيل الإنكار العمليّ لذات

الله في وجوده، وأسمائه تعالى كالخالق والمالك، والقادر، والرازق، والمميت والمحيي ... إلخ، فالله جل وعلا وحده له حق التصرف في ملكه، وتشريع ما ينفع خلقه. ولربما كان هذا الفساد هو نوع من الفساد المقصود في قوله تعالى: **﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾**[الروم: 41]، لأن سياق الآية الكريمة جاء بالربط بين هذا الفساد والإشراك بالله تعالى، حيث إن الآية السابقة لها جاءت في التعريف بالله تعالى وأنه الخالق والرازق والمميت والمحيي، وجاء ما قبل هذا التعريف ذكر أهم أنواع الانحلال الأخلاقي وهو الربا، ومنها كان الربا هو أحط أنواع الفساد، فهو فساد في كسب الرزق.

ولقد جاءت الآيات القرآنية في إثبات حرمة الربا في سابق الشرائع وهذا مذكور في كتاب الله تعالى، كما حكى عن اليهود في قوله تعالى: **﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾** [النساء: 161]، لأن الربا هو ابتغاء عرض الحياة الدنيا وجعلها غاية وجود الإنسان، وإنكار عمليّ لركن آخر من أركان العقيدة هو الإيمان باليوم الآخر، حيث إن الغلو في جمع المال في الدنيا إضرار بالآخرة، إذ إنه يعني اتخاذ سبل الفساد لتحقيق الغاية الزائلة، وعدم محاسبة النفس على ما اقترفت، واغترار الإنسان بالمحسوس وإهمال ما بعد ذلك، وهذا الجانب من جوانب هذا المظهر قد تفشّى في قوم شعيب عندما ظنوا أن ما بين أيديهم ملكهم الذي لا يحاسبهم عليه أحد، ومشيئتهم لها كامل الحق في التصرف المطلق بما آتاهم الله، فنهاهم عن الإفساد في الأرض، وبيّن تعالى ردّهم على نبيّهم: **﴿قَالُواْ يشُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾**[هود: 87]، وذكره النبيّ ﷺ بأنه من الموبقات، فجاء عن النبيّ ﷺ أنه قال: "اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ قَالَ الشِّرْكُ بِاللَّهِ وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ"[54].

أما الزنا والقتل كجوانب أخرى من جوانب هذا المظهر، "فإن كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه"[55]، وعندما قرر الله تعالى أنه هو وحده المتصرّف بأحوال خَلْقه، وكرّم كلّ بني آدم دون فرق بينهم، وجعل الفارق بينهم مدى الربط بين العقيدة والسلوك، فإن أي اعتداء على إنسان إنكار عمليٌّ لوحدانية الله تعالى التي هي من حقائق وجوده، وهو وجه لاستعباد العباد الذين خلقهم الله أحراراً في منهجه الذي وضعه لخلقه، فإن قتل الأولاد مثلاً خشية الإنفاق خلل في عقيدة الإيمان بالله؛ فالله وحده رازق لعباده مقسم أرزاقه عليهم، فكما خلق هؤلاء الأولاد رزقهم، وقرب الزنا فُحْش "يقولون: كلُّ شيء جاوَزَ قَدرَه فهو فاحش؛ ولا يكون ذلك إلاّ فيما يُتَكَرَّه"[56]، "والفاحشة كل ما يشتد قبحه من المعاصي والذنوب، وتقال لكل خصلة قبيحة من الأقوال والأفعال"[57]، واقتراف المنكر يعني فسق وخروج عن حدودٍ وضعها خالق الحياة لتنظيم الحياة، وله وحده هذا الحق فقط، فاقتراف الزنا فساد في النسل، وهو أيضاً مخالف لسنن الله في خلقه لأنه اقتراف "فعل مخصوص لا يجري على طريقة لازمة وسنة جارية"[58] ويؤدي إلى اختلاط في النسب ولبس في المعرفة لذوي الرحم من غيرهم، وفساد أحد القوى المدبّرة للبدن[59].

المبحث الثاني
مظاهر الفرقة في الاعتقاد

إن من مقاصد شياطين الإنس والجن في تثبيت دعائم الانحراف العقدي تشتيت شمل الإنسانية وتفرقتها سبلاً شتى، وهذا ما نهي عنه القرآن الكريم عند قول الله تعالى: **﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾**[الأنعام: 153]، لأن الشتات موجب للتنازع، والسبيل الذي يدعو للفرقة هو

سبيل متعدد الوسائل، وبما أن الله وحده هو الخالق والواضع لسبيله، فلا بد أن يكون سبيلاً واحداً يجمع الخلق عليه، فإذا اجتمع الخلق على سبيل واحد انتفت الفرقة، وإذا انتفت الفرقة فلا بد من انتفاء الانحراف وأسبابه.

الواقع الحاليّ يثبت وجود الانحراف العقديّ، لأن أحد مظاهر هذا الانحراف الفرقة المؤدية إلى الاختلاف، ومع أن المشرع واحد والعقيدة واحدة والمعروف واحد والمنكر واحد، وعدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كواجب فردي أو جماعيّ تحت عقيدة إله واحد إلا أن هناك فرقة عقديّة منحرفة ذات جوانب متعددة تتخلص بما يلي:

الجانب الأول: ظهور الطوائف والفرق العقدية: ومنشؤه ظهور أفكار متعددة ومنحرفة، وعند البحث في أفكار الفرق العقدية المختلفة نجد الله عند البعض من الحشوية الذين "لم يتمكنوا من فهم موجود إلا في جهة، فأثبتوا الجهة حتى ألزمتهم بالضرورة الجسمية والتقدير والاختصاص بصفات الحدوث"(60) مخالفة للمعتزلة الذين نفوها فأفرطوا في التنزيه الموجب نفي رؤيته تعالى إلى غيرها من التصوّرات التي خضعت لها ذاته ﷻ، فانحرفوا عن نهجه في معرفة ذاته، فينتفي في الحقيقة وجود الله تعالى منزّهاً عن كل النقائص، وهذا بحد ذاته فرق عقدي ناتج عن انحراف في الفهم، إلى درجة وجود من "أجاز رؤيته في الدنيا ومصافحته وملامسته ومزاورته إياهم"(61)، كما اختلفوا في مقداره –تعالى– ومساحته(62).

كما أن ظهور الفرق والمذاهب كفلاسفة المسلمين "ابن سينا والفارابي وإخوان الصفا" الين نسبوا لله من الصفات والأفعال ما ليس فيه، فأخضعت صفاته للخيال، ونسبت إليه عدم العلم "بالجزئيات وتفصيل الحوادث، وإنما يعلم الكليات، وإنما الجزئيات تعلمها الملائكة السماوية"(63)، وقيّدوا أفعاله بالأحوال والأوهام فكان منهم أقوال لا تليق به في قضية الاستواء، فانتهى الأمر بكونه –جل في علاه– في تصوّراتهم غير الذي أمر الناس بمعرفته عن ذاته وصفاته وأفعاله تعالى، مما سبب وجود الضلال، وقد ختم النبيّ ﷺ رسالته بتوجيه الأمة إلى مقرّ تحقيق الإجماع في مسائل العقيدة في حجة الوداع فقال: "وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابُ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ قَالُوا نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ اللَّهُمَّ اشْهَدْ اللَّهُمَّ اشْهَدْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ"(64).

الجانب الثاني: اتخاذ التعصب المذهبي أساساً في الفُرْقة العقدية:

ويعرّف التعصب المذهبيّ بأنه: الإصرار على مذهب ما استمساكاً بنهج الأسلاف دون التعقل أو التفكير، ودون النظر لآرائهم بالنقد المنهجيّ السليم، مع الرفض التام لكل ما يخالف هذا المذهب بقصد المخالفة، وعدم النظر إلى الآراء الأخرى بموضوعية ومنطق سليم، مما يؤدي إلى التفرقة يشير تعالى إلى ذلك: **﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَاْ رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُواْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾**[المؤمنون: 51-52].

إن وجود ظاهرة التعصب المذهبي بمثابة العودة لإحياء عقيدة (إنا وجدنا آباءنا)، إلا أن الفارق بينهما هو أن المتمذهبين يلتزمون مذاهب منطلقها الشهادتان، واختلافهم في تفاصيلها، وهذا التعصب المذهبيّ قد يوصل بعضهم إلى أن "يملأ أحدهم الأرض بتصانيفه، ولو في خدمة الكتاب والسنة، من التفسير والشرح لهما، وهو مع ذلك جاثم على ما اتفق له من التقليد، ساع في نصرة مذهب إمامه، ولو بالتعسف، مطرح لقول الله ورسوله، مؤثر لما وجد عليه سلفه"(65).

كما أن هذه الظاهرة قد تؤدي ببعض المتمسكين بمذهب ما إلى اللجوء إلى تحريف الكلم عن مواضعه، وهذا عمل أهل الكتاب من قبل حين حرّفوا دينهم، ولولا أن دين الإسلام محفوظ بحفظ القرآن، لكان المصير مثل ما كان للديانتين المسيحية واليهودية؛ فإخضاع الدين للأهواء، وحصر الدين بآراء محصورة بفكر معين هو من مظاهر انحراف الفكر والاعتقاد، ومن أدلة

زوال الخوف من الله، وتدني مقياس التقوى، بجعل نصرة هذا المذهب هو غاية حياته، ونهاية مطلبه، وبما أن الشيطان هو قائد الانحراف الاعتقاديّ والمؤسس الأول له فإنه يكون كذلك للفرقة قال ﷺ: "الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد"(66).

إن الله تعالى قد أقام أسس الاعتقاد على قواعد الإقناع المنطقيّ والتفكير المنهجيّ، وجعل من سياسة عدم الإكراه سبيلاً لإقامة الرضا النفسيّ، وأي مذهب لا يقيم قواعده على أسس هي من وضع الله تعالى يكون قد بنا قواعده على سلطان الهوى واستحكام الظنون، لأن الحق هو ما جاء بالقرآن عند النظر إليه بموضوعية ودون تحيّز لفكرة أو رأي أو مذهب أو فرقة، وما تفرق الناس في سبل الانحراف إلا بعد أن حصروا النص والعقل بعالم النقص الذي هو من صنع البشر، لذا فإن النبيّ ﷺ وهو الذي يتفق على سلامة عقيدته الإنس والجن لم يحصر الإسلام في فئة معينة قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ**﴾[الأنعام: 159]، بل جاء إسلاماً عالميّاً لئلا يكون حكراً في تعاليمه وتفاصيله على منهج معين، وحصر الإسلام كتاباً وسنة في فكرة أو رأي أو مذهب أو فرقة هو مخالفة صريحة لعالمية الإسلام التي ثبّت دعائمها النبيّ ﷺ، قال تعالى: ﴿**وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾[آل عمران: 105].

الخاتمة:

وبعد هذه الدراسة لموضوع الانحراف العقدي نخلص إلى النتائج التالية:

1- إن الأصل الذي ابتدأ منه الإنسان أن يكون مخلوقاً سويّاً موافقاً في سويته لفطرته السليمة، فهو مفطور على الخير والتوحيد هو جبلّته.

2- هناك أسباب تدفع الأفراد وتوجههم إلى اعتناق أفكار سقيمة واعتقادات باطلة، وهذه الأسباب تتنامى في النفس الإنسانية لتؤدي بها إلى رفض أي فكرة مخالفة أو مبدأ مغاير لما اعتقدته، وهذا الرفض هو إنكار لحكم مسبق على الاعتقاد القويم، أو استكبار مصدره الهوى يؤدي بالتمسك بالاعتقاد المنحرف مع علم الشخص بخطأ هذا التمسك المؤدي إلى الانحراف.

3- إن التواصل الإنساني الاجتماعي يؤدي إلى عملية تأثر وتأثير بالمعتقدات السائدة، حيث إن البيئة الاجتماعية تحكم الأفراد والجماعات بنوع من المعتقدات إما أن تكون منحرفة أو سوية. بالإضافة إلى غياب العقل الواعي في تدبّر هذه المعتقدات والإيمان بمظاهر محسوسة ملموسة، وإنّ لها الدور الأكبر في صياغة المعتقدات.

4- إنّ التيارات التشويهية التي يواجهها أصحاب العقيدة السوية هي من السنن الإنسانية، إذ إن غرابة الفكر القويم أمام الفكر المنحرف، والدعوة إلى الإيمان بعالم الغيب وقياس الغائب على الشاهد، وغرابة ما يدعو إليه الأنبياء من أمور غير مألوفة، بالإضافة إلى وظيفة العقيدة السليمة في تحطيم مظاهر العظمة الزائفة عند الملأ من الأقوام، وهيمنة هؤلاء الملأ على الضعفاء من أقوامهم، كل ذلك أدى إلى انحراف عن طريق الحق والالتجاء إلى الطريق الأسهل وهو الإبقاء على المعتقدات القديمة والتمسك بها والإلف بمضمونها والإقامة عليه، ومحاربة كل من يدعو إلى إفساده، كل ذلك هي من عوامل إيجاد الشبهات والثغرات لدى الفكرة السوية.

الهوامش:

(1) ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا (395هـ)، **معجم مقاييس اللغة**، اعتنى به د. محمد عوض وفاطمة أصلان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1422هـ، 2001م، ص237.

(2) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (630-711هـ)، **لسان العرب**، مؤسسة التاريخ العربي، ط2، 1413هـ، 1993م، ج3، ص129. وانظر: الزَّبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق: مجموعة من المحققين، **نشر دار الهداية**، ج3، ص135. وابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مصدر سابق، ص237.

(3) الزَّبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، **تاج العروس من جواهر القاموس**، ج23، ص130.

(4) الرازي، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين، **التفسير الكبير**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، إعداد مكتب تحقيق: دار إحياء التراث العربي، ط4، 2001م، المجلد الرابع، ص93.

(5) الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (ت 1250هـ)، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، بدون رقم طبعة أو تاريخ، ج1، ص474-475.

(6) الزمخشري، محمود بن عمر (ت 528هـ)، **الكشاف عن حقائق الغوامض والتنزيل**، صححه مصطفى حسين أحمد، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط2، 1953م، ج1، ص399.

(7) وعند النظر في آراء المفسرين في قضية فطرة الإنسان على الخير لم يكن بينهم من فسّرها بفطرة الإنسان الخيّرة، ولربما كان السبب في ذلك الاختلاف الحاصل في قضية الفطرة، فالفلاسفة وعلماء النفس والمفسرون يقولون بأن الإنسان مفطور على استقبال الخير والشر، ومنهم من يقول إن الإنسان مفطور على الشر، ومنهم من يقول – وهو الرأي الراجح- إن الإنسان مفطور على الخير، وما الشر الذي يفعله إلا بسبب عارض يعترضه، وهو الرأي الموافق للطبيعة البشرية والواقع المحسوس، فالآيات تجمع بين إحسان خلق الله وتسويته بالفطرة السوية التي تضمن شعور الإنسان الدائم بأحقية المنهج القرآني في الالتزام وهداية الله تعالى للإنسان بما بيّنه له من خير الدنيا والآخرة في تفاصيل منهجه، والله تعالى أعلم. انظر: المسألة: السامرائي، فاروق، وأحمد الدغشي، **الأساس الفطري في التربية الإسلامية**، مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون، مجلد24، سنة 1997م، ص282.

(8) مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت 261هـ)، **صحيح مسلم بشرح الإمام النووي**، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، حديث رقم 865، ج7، ص197.

(9) والقصد من كلمة عادات: أي عادات في الطعام واللباس، والنكاح والمسكن، والاجتماع والافتراق، والسفر والإقامة، والركوب وغير ذلك.

(10) ابن تيمية، أحمد بن شهاب الدين أبو المحاسن عبد الحليم، **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، مكتبة الرشد – الرياض، بدون رقم طبعة أو سنة، ج1، ص92.

(11) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان**، دار المعرفة – بيروت، ط2، 1395-1975م، ج2، ص102.

(12) **المرجع السابق**، ج2، ص204.

(13) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مصدر سابق، ص1009.

(14) **المصدر السابق**، ص186.

(15) الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ، 2001م، المجلد6، ص 284.

(16) ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي، **المخصص**، تحقيق: خليل إبراهم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1417هـ 1996م، ج2، ص78.

(17) قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، الطبعة الشرعية التاسعة، 1400هـ/1980م، المجلد الرابع، ص2130.

(18) انظر: الزبيدي، محمد بن محمد الحسيني، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق: مجموعة من المحققين، نشر دار الهداية، ج27، ص233.

(19) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مصدر سابق، ص499.

(20) الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الملقب بفخر الدين، **مفاتيح الغيب**، المجلد 9، ج25، ص61.

(21) الترجيح هو بيان الرجحان وإثباته، وهو زيادة أحد المثلين المتعارضين على الآخر وصفاً ومعنىً. انظر: الحفني، عبد المنعم، **المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة**، نشر مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 2000م، ص191.

(22) الدور هو علاقة بين حدين بحيث يمكن تعريف كل منهما بالآخر، أو هو توقف كل من الشيئين على الآخر. والتسلسل هو: ترتب أمور غير متناهية مجتمعة في الوجود ... انظر: المرجع السابق، ص194و351.

(23) البوطي، محمد سعيد رمضان، **كبرى اليقينيات الكونية**، دار الفكر، دمشق، بدون رقم طبعة، 1419هـ/1998م، ص95 بتصرف.

(24) انظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، **كبرى اليقينيات الكونية**، ص86-89.

(25) الغزالي، أبو حامد، المنقذ من الضلال، **أصناف الفلاسفة وشمول وصمة الكفر كافتهم**، الصنف الأول الدهريون، تحقيق: د.جميل صليبا ود.كامل عياد، مطبعة جامعة دمشق، ط6، 1960م، ص73.

(26) انظر: الفيروزأبادي، محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، بدون رقم طبعة أو تاريخ، ج4، ص245. والطالقاني، إسماعيل بن عباد بن العباس، **المحيط في اللغة**، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1994م، ط10، ص12. والفيومي، أحمد بن محمد بن علي، **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، المكتبة العلمية، بيروت، ج2، ص386. **المعجم الوسيط**، مرجع سابق، ج2، ص578. وقد توافقت المعجمات الاصطلاحية مع معجمات اللغة في مفهوم الظن على الأرجح فنجد صاحب كتاب التعريفات يُعرّف الظن بأنه: "الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض". الجرجاني، علي بن محمد بن علي، **التعريفات**، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1987م، ص188.

(27) الرازي، الفخر، **مفاتيح الغيب**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1421هـ-2000م، ج25، ص127.

(28) ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، دار سحنون، تونس، بدون طبعة، مجلد 9، ص248.

(29) الشهرستاني، أبو الفتح عبد الكريم بن علي بن أبي بكر، **نهاية الإقدام في علم الكلام**، تحرير وتصحيح الفرد جيوم، بلا دار نشر أو طبعة أو تاريخ، ص103 وما بعدها.

(30) **المرجع سابق**، ص123 وما بعدها.

(31) المراد بالاتباع مطلقُ الاعتقادِ الشامل لما يقارن القَبولَ والانقيادَ وما لا يقارنه، انظر: أبو السعود، محمد بن محمد العمادي الحنفي، **إرشاد العقل السليم**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1419هـ، 1999م، ج3، ص239.

(32) أبو السعود، محمد بن محمد العمادي الحنفي، **إرشاد العقل السليم**، المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(33) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1423هـ/2003م، ج8، ص94.

(34) الآلوسي، **روح المعاني**، مصدر سابق، مجلد 3، ص148.

(35) لقوله تعالى: **﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾**[البقرة: 120].

(36) لقوله تعالى: **﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾**[الأنعام: 116].

(37) لقوله تعالى: **﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾**[هود: 113].

(38) قال تعالى: **﴿فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾**[القلم: 9].

(39) قال تعالى: **﴿يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ *هَاأَنْتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾**[آل عمران118-119].

(40) جاء في الإبانة الكبرى لابن بطة أن "عبد الله بن عتبة رأى رجلا صنع شيئاً من زي الأعاجم، فقال: «ليتق رجل أن يكون يهوديا أو نصرانيا، وهو لا يشعر» باب زيادة الإيمان ونقصانه، وما دل على الفاضل فيه والمفضول. ابن بطة العكبري، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد، **الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة**، تحقيق: عثمان عبد الله آدم الأثيوبي وآخرين، دار الراية، الرياض، ط2، 1994م، ج2، ص858.

(41) انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، مصدر سابق، ص91.

(42) الآلوسي، **روح المعاني**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1420هـ-1999م، ج3، ص284. ورأس المال هو بناء عقيدته على غير الاستقامة باتخاذه سبيلاً غير صراط الله المستقيم، وهو قيام عقيدته على انحراف الفكر وميل النفس.

(43) انظر: الغزالي، أبو حامد، **الاقتصاد في الاعتقاد**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1403هـ/1983م، ص160.

(44) **المرجع السابق**، ص156.

(45) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(46) وقد تم تعريف الإنكار الكلي والجزئي في بداية الحديث عن السبب الأول من أسباب الانحراف وهو الانحراف الإنكاري الموجِّه لانحراف الاعتقاد.

(47) رواه البخاري كتاب الأدب باب مَنْ كَفَّرَ أَخَاهُ بِغَيْرِ تَأْوِيلٍ فَهُوَ كَمَا قَالَ.

(48) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مصدر سابق، ص773.

(49) الخوارج: أطلق مصطلح الخوارج على الفئة التي خرجت على الإمام علي بن أبي طالب بعد أن كانت معه في حربه ضد معاوية ابن أبي سفيان قبيل انتصاف القرن الهجري الأول، وكانت بينه وبينهم مناظرات ومقاتلات انتهت بمقتله، وقد تسمت هذه الفرقة بعدة مسميات منها الحرورية، والشراة، والمحكمة، وأجمع اسم لها هو الخوارج. انظر: حمزة، محمد، **التآلف بين الفرق الإسلامية**، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1985م، ص25-60.

(50) فرقة دينية ظهرت في النصف الأول من القرن الهجري الأول، تحمل مبدءاً دينياً أسهمت فيه مع الفرق الناشئة هو موضوع الإيمان، فجعلت الإيمان تصديقاً بالقلب فقط ولا علاقة للعمل به كما أنها امتنعت عن الخوض فيما حدث من انشقاق بين الصحابيين الجليلين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، وأرجأت الحكم فيهما إلى الله تعالى، كما أرجأت أمر مرتكب الكبيرة إلى الله إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه. انظر: أبو زهرة، محمد، **تاريخ المذاهب الإسلامية**، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون رقم طبعة وتاريخ، ص119-124.

(51) كالمذاهب الحلولية التي تقول بحلول العنصر الإلهي في العنصر البشري كالحلاج وابن الفارض، وكالمذهب الإشراقي الذي ساده الطابع الفلسفي الذي يرى أن أساس كل تصوّف هو الإشراق الروحي، وكالمذاهب القائلة بوحدة الوجود، والفناء في الله، والاتحاد والحلول. انظر: تامر، عارف، **معجم الفرق الإسلامية**، دار المسيرة، بيروت، ط1، 1990م، ص99-100.

(52) كالسبئية، والغرابية، والكيسانية، والبيانية، وغيرها من فرق الشيعة المغالية. انظر: أسود، العميد عبد الرزاق، **المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب**، الدار العربية للموسوعات، بيروت، المجلد الثالث، ط1، 1981م، ص49-66.

(53) ابن خلكان، أحمد بن محمد (ت 681هـ)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، الجزء الثالث، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1970م، ص254.

(54) أخرجه البخاريّ في صحيحه، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً﴾**، وأيضاً في كتاب الحدود باب قذف المحصنات.

(55) رواه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب، بَاب تَحْرِيمِ ظُلْمِ الْمُسْلِمِ وَخَذْلِهِ وَاحْتِقَارِهِ وَدَمِهِ وَعِرْضِهِ وَمَالِهِ.

(56) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج4، ص468.

(57) الآلوسي، **روح المعاني**، تحقيق: محمد الأحمد، عمر السلامي، دار إحياء التراث، بيروت، ط1420/1هـ، 1999م، ج4، ص374.

(58) **المصدر السابق**، ج4، ص621.

(59) انظر: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان، **تفسير البحر المحيط**، دار الفكر، بيروت، بدون رقم طبعة وسنة نشر، ج3، ص155.

(60) الغزالي، أبو حامد، **الاقتصاد في الاعتقاد**، القطب الأول النظر في ذات الله، ص48، بتصرف.

(61) الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل، **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلّين**، تحقيق: هلموت ريتر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، بدون تاريخ، ص214.

(62) انظر: الإيجي، عبد الرحمن بن أحمد، **المواقف في علم الكلام**، عالم الكتب، مكتبة سعد الدين، بيروت، القاهرة، دمشق، بدون طبعة أو تاريخ، ص270-271.

(63) الغزالي، **الاقتصاد في الاعتقاد**، ص157.

(64) رواه مسلم في صحيحه كتاب الحج باب حَجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ.

(65) القنوجـي، محمد صديق حسن خان، والإمام محمد بن عبد الوهاب، قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر، السعوديـة، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط1، 1421هـ، ص126.

(66) رواه الترمذي في كتاب الفقه باب ما جاء في لزوم الجماعة، ورواه النسائي في مسألة من يدخل على المرأة، وأحمد في مسند العشرة المبشرين في الجنة مسند عمر بن الخطاب.